محاضرات الأنثروبولوجيا السياسية

السنة الثالثة ل.م.د أنثروبولوجيا

الأستاذ: رميته أحمد

مناهج الأنثروبولوجيا السياسية:

لم تتميز المناهج في البداية عن مجمل المنهج الأنثروبولوجي وهي أصبحت أكثر نوعية عندما تناولت الأنثروبولوجيا السياسية المضمرة حتى ذلك الحين مسائل خاصة بها وهي: سيرورات تكون المجتمعات الدولتية، طبيعة الدول البدائية، أشكال السلطة السياسية في المجتمعات المتمتعة بالحد الأدنى من الحكم وغيرها. واكتسبت هذه المناهج أصالتها الكاملة منذ أن أصبحت الأنثروبولوجيا السياسية مشروعا علميا يستهدف موضوعا ما أو أهدافا محددة للغاية. وهكذا تلقت تأثير العلوم الاجتماعية السياسية السائدة – تيار ماكس فيبر أو نادرا جدا تيار ماركس وانجلس (مثلا حالة ليسلس وايت)– وإستفادت رغم ذلك من وجوه التقدم التي أحرزتها الأنثروبولوجيا العامة.

تتميز هذه الطرائق بالأدوات التي تلجأ إليها وبالمسائل التي اشتغلت عليها، ولا يكون تعريفها كافيا بمقارنة الأعمال النظرية التي تبني مجالها الدراسي مرتكز على اسهام الأبحاث الميدانية والأعمال التي تقتصر على الإعداد الفوري للمعطيات الناتجة عن البحث المباشر. ومن المناسب وضع قائمة موجزة بهذه الطرائق وذلك قبل تقديم فعاليتها العلمية في معرفة الحقل السياسي.

1. المنهج التكويني:

يعتبر الأول في تاريخ الأنثروبولوجيا السياسية والأكثر طموحا في الوقت نفسه، حيث يطرح على نفسه مسائل المنشأ و"التطور" الطويل الأمد: الأصل السحري أو/و الديني

للملكية، مسيرة تكون الدولة البدائية، تحول المجتمعات المبنية على "القرابة" إلى مجتمعات سياسية، وغيرها. تمثل هذا المنهج عبر عدة مؤلفات – إبتداءا من مؤلفات الرواد حتى دراسة و. ت ماك ليود التاريخية: أصل السياسات وتاريخها 1931 The origin and history of politics ومن زاوية ما وجد هذا المنهج نتيجته في الأبحاث العرفية التي أوحت بها الماركسية والتي أدخلت إليه تصويرا ديالكتيا عن تاريخ المجتمعات

2. المنهج الوظائفي:

يعين هذا الإتجاه نوع المؤسسات السياسية في المجتمعات المسماة بدائية، إنطلاقا من الوظائف التي تؤديها. وحسب تعبير لراد كليف براون فإنه يؤدي إلى النظر "بالتنظيم السياسي" كجانب من جوانب "التنظيم الشامل للمجتمع"، عمليا يقارن التحليل المؤسسات السياسية الصافية (إذ، جهاز الملكية) ومؤسسات متعددة الوظائف تستخدم في بعض الظروف لأهداف سياسية (إذ، "التحالفات المعقودة بين القبائل والأنساب). يسمح نموذج المنهج هذا بتحديد العلاقات السياسية وما تبينه من نظم وأنساق ولكنه قلما ساهم بتوضيح "طبيعة" الظاهرة السياسية. فهذه تتميز عامة من مجموعتين من الوظائف هما: تلك التي تؤسس الإنتظام الاجتماعي وتحافظ عليه بإعدادها للتعاون الداخلي (راد كليف بران)، وتلك التي تضمن الأمن بتأمين الدفاع عن الوحدة السياسية.

3. المنهج النموذجي (التصنيفي):

هو امتداد للمنهج السابق، حيث يسعى إلى تحديد نماذج أنظمة سياسية وتصنيف أشكال تنظيم الحياة السياسية ويبدو أن وجود أو عدم وجود الدولة البدائية يقدم مؤشر التمييز الأول: إنه المؤشر السائد في "الأنظمة السياسية الإفريقية". وهناك إعتراض على التفسير الذاهب في اتجاهين. عمليا، من الممكن بناء سلسلة من النماذج ممتدة من أنظمة ذات حكم بالحد

الأدنى حتى أنظمة الدولة التامة البناء، متقدمة من نموذج نحو النماذج الأخرى، تتميز السلطة السياسية أكثر فأكثر، وتتنظم بطريقة أكثر تعقيدا وتتركز. وتظهر المقابلة البسيطة بين المجتمعات المجزئة والمجتمعات الدولتية الممركزة قابلة للنقاش خصوصا، إشارة إلى إدخال فئة ثالثة على الأقل وهي فئة الدول المجزأة.

وأبعد من هذا النقد تعرضت الطريقة ذاتها للشك، ولدرجة أنه جرى تشبيه النموذجية أحيانا ب"حشو" باطل قد يكون من المناسب على الأقل أن لا نخلط ونجمع النموذجية "الوصفية" والنموذجية "الإستنتاجية". وقد ينبغي أن لا نتجنب العقبة الرئيسية وهي: كون المناهج المحددة "مجمدة"، وحسب قول معبر لليتش: "لا نستطيع الإكتفاء طويلا بالمحاولات التي تقيم نموذجية لأنظمة ثايته"

4. المنهج الإصطلاحي:

إن كشفا أوليا للظواهر والأنظمة السياسية وتصنيفها يؤديان بالضرورة إلى محاولة إعداد فئات أساسية. وتلك مهمة صعبة تتطلب قبل كل شيء تحليل دقيقا للحقل السياسي. ويبقى هذا التحديد غير كامل إلى حد بعيد: ففي بحث حول الأنثروبولوجيا السياسية، يؤكد الدكتور إستن أن مادة هذا العلم تبقى غير محددة ذلك لأن "عدة مسائل مفهومية لم تحل بعد". إن إحدى هذه المبادرات الأكثر إنطلاقا في هذا المجال هي مبادرة م.ج.سميث التي تحاول وبجرأة وضع المفاهيم الأساسية مثل: علم سياسي، منافسة، سلطة، الحكم، إدارة، وظيفة وغيرها. وهي مبادرة نافعة (بنتائجها) خصوصا وأنها تتناول "العمل السياسي" بطريقة تحليلية وذلك من أجل الكشف عن الناحية المشتركة لكل الأنظمة. رغم ذلك يبقى وضع معجم المفاهيم الرئيسية أسهل من شحنه بالمحتوى. ويجب أن يكون إعداد هذه المفاهيم تاما وذلك بدراسة منهجية للمقولات والنظريات السياسية المحلية، سواء كانت هذه الأخيرة صريحة أو ضمنية ومهما تكن الصعوبات التي تعترض تفسيرها.

وهكذا تكون الألسنية إحدى الأدوات الضرورية للأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا السياسيتين. لا يمكننا أن نتجاهل كون المجتمعات الخاضعة للأنثروبولوجيا السياسية تفرض توضيح النظريات التي تشرحها والأيديولوجيات التي تبررها. وكان كل من أ. سوتا ل و ج.بيتي و ج. بالونديه قد إقترحوا الوسائل المستخدمة بهدف بناء هذه الأنظمة المعبرة عن الفكر السياسي المحلي.

5. المنهج البنيوي:

يستدل هذا الإتجاه الدراسة التكونية أو الوظائفية بدراسة للسياسي إنطلاقا من نماذج بنيوية. فهو ينظر إلى السياسة من جانب العلاقات "الشكلية" التي تحلل علاقات السلطة القائمة فعلا بين الأفراد وبين جماعات وإذ يكتفي بالتفسير الأسهل، فإن البنى السياسية –قبل كل بنية اجتماعية– هي الأنظمة المجردة المعبرة عن المبادئ التي توحد العناصر المكونة للمجتمعات السياسية الواقعية. ففي مقالة مثيرة متخصصة "لبنية السلطة عند الجاجرائيين" وهم تجمع سكاني تشادي، عين ج. بويون وأوضح إحدى إمكانيات الطريقة البنيوية المطبقة في مجال الأنثروبولوجية السياسية وتناول التطبيق مجموعة من المجتمعات الصغيرة مقدمة في آن معا علاقات قرابة (الإسم العام –الحاجرائي – يذكر بها) وصيغ معبرة وخاصة في معالجة السلطة. وجود عناصر مشتركة وتمايز في تناسقها، ذلك هو الشرط المزدوج الضروري لهذا المنهج، ويتيح لنا الشرط أن تبنى على درجتين أنظمة مطابقة لمجمل أشكال التنظيم الاجتماعي – السياسي و"نظام الأنظمة"– المفروض أن يحدد السلطة الحاجرائية. من هنا تأتي مرحلتا الدراسة: المرحلة الأولى وهي "كشف العلاقات البنيوية الداخلية لكل تنظيم معتبر كنظام"، المرحلة الثانية وهي تأويل مجموعة التنظيمات المدروسة كأنها نتائج توافق. في الحالة المذكورة هذه توضح الطريقة خاصة التوفيقات المختلفة (المساوات، التمييز الجزئي، التأكيد المتغير) للسلطتين الدينية والسياسية، وتوضح أيضا لعبة منطق يتحقق بأشكال مختلفة داخل بنية كلية واحدة. وبهذا تستطيع البدائل أن تشير إلى أحوال في البيئة نفسها.

عند تطبيقه على دراسة الأنظمة السياسية يشير المنهج البنيوي صعوبات خاصة به وعلى مستوى أكثر شمولا. وخاصة الصعوبات التي تناولها البنيوي المعتدل أ.ر.ليتش في دراسته عن المجتمع الساسي الكاشاني أنه ينطلق من أمر واضح وهو أن البنى التي يعدها الأنثروبولوجي نماذج موجودة فقط "كصيغ منطقية". ومن هنا نطرح السؤال الأول: كيف نتأكد أن النموذج الشكلي هو الأنسب؟ أضف على ذلك أن ليتش تفحص صعوبة أكثر أهمية. "حسب ما يصفها الأنثروبولوجيون فإن الأنظمة البنيوية هي دائما أنظمة سكونية"؟ إنها نماذج من الواقع الاجتماعي تقدم حالة من التماسك والتوازن الثابت في حين أن هذا الواقع ليس له طابع الكل المتماسك، فهو يخفي تناقضات ويكشف عن متغيرات وتحولات في البنى. في حالة التنظيم السياسي الكشاني الخاصة يعاين ليتش ظاهرة التذبذب بين قطبين – النموذج الديمقراطي الغملاوي والنموذج "الأرستقراطي" الشاني– واستقرار النظام والتسويات المتغيرة للثقافة والبنية الاجتماعية – السياسية، والوسط البنيوي. إن دقة العديد من التحليلات البنيوية شكلية وخادعة وتفسر بشرط ضروري ولكنه مقنع غالبا هو: "وصف بعض نماذج الوضع الوهمية أي بنية أنظمة التوازنات"

6. المنهج الدينامي:

يكمل هذا المنهج جزئيا المنهج السابق بتصحيح بعض نقاطه. فهو يريد تناول ديناميكية البنى وكذلك نظام العلاقات التي تكونها، أي أخذ التعارضات والتناقضات والتوترات والحركة اللازمة لكل مجتمع بعين الإعتبار ويفرض هذا المنهج نفسه كأنثروبولجية سياسية خصوصا وأن الميدان السياسي هو الميدان الذي تلتقط فيه هذه التعارضات و التناقضات و التوترات بشكل أفظل و الذي يترك فيه التاريخ بصماته بأوضح ما يكون.

لقد ساهم ليتش مباشرة في إعداد هذا المنهج و ذلك بعد أن بحث في أسباب ظهوره المتأخر. و أدان تأثير دوركايم المسيطر–على حساب تأثير باريتو أو ماكس فيبر– الذي قد يكون سوغ مفهوما يشدد على التوازنات البنيوية و التماثلات الثقافية و أشكال التضامن،حتى

أن المجتمعات التي تحمل صراعات ظاهرة و العرضة للتغييرات أصبحت "مهتمة بالفوضوية". وقد نقض "الآراء المسبقة الأكاديمية" والنزعة العرقية للأنثروبولوجيين الذين ألفوا بعض المعطيات الواقعية وذلك لكي يقتصر البحث على مجتمعات مستقرة لا تهددها التناقضات الداخلية منعزلة داخل حدودها. بإختصار حث ليتش على إعطاء وزن أكبر لما هو متناقض و محل نزاع و تقريبي و لما هو مرتبط بالخارج. ويبدو هذا الإتجاه ضروريا لتقدم الأنثروبولوجيا السياسية، لأن السياسي يتوضح أولا بتعارض المصالح و المنافسة.

بدعوة من ماكس غلوكمان وجه أنروبولوجييو مدرسة مانشستر أبحاثهم في إتجاه التفسير الدينامي للمجتمعات فقد تفحص غلوكمان طبيعة العلاقات الموجودة بين "التقليد" و "الصراع" (التقليد و الصراع في إفريقيا 1955) وبين "النظام" و "التمرد"(النظام و التمرد في إفريقيا القبلية 1963) ويرتبط إسهامه بالنظرية العامة للمجتمعات التقليدية والقديمة و في الوقت نفسه بمنهج الأنثروبولوجيا السياسية، التي إستلهمت نظريته عن التمرد ودراساته المخصصة لبعض الدول الإفريقية. وهو ينظر إلى التمرد كسيرورة مستمرة تؤثر بالعلاقات السياسية بطريقة دائمة، بينما يعتبر الطقس من ناحية أخرى كوسيلة تعبير عن النزاعات وتجاوزها بتأكيد وحدة المجتمع. و تظهر الدولة الإفريقية التقليدية مزعزعة وحاملة معارضة منظمة طقسية تساهم بالحفاظ على النظام أكثر تغييره، وهكذا يصبح عدم الاستقرار النسبي والتمرد المضبوط الظاهرتين العاديتين لسيرورات سياسية خاصة بنموذخ الدولة هذا. وكما نرى فإن التجديد النظري حقيقي ولكنه لا يصل إلى نهايته. ويعترف ماكس غلوكمان بقوة بالدينامية الداخلية "كمكونة" لكل مجتمع ولكنه يختزل قوتها التغييرية. تؤخذ الدينامية بالإعتبار – كالحقائق الناتجة عن "الشروط الخارجية" ولكنها تضم إلى مفهوم للتاريخ يربط المجتمعات المأخوذة بتاريخ يعتبر تكرار.

اثار هذا التأويل جدلا كان من الصعب تلافيه، وظهرت أهميته من جهة أخرى بالفائدة المتناهية المنسوبة للتحليلات الأنثروبولوجية ذات المنحى التاريخي و بكثرة المحاولات النظرية التي تقومه بعد مرحلة طويلة من فقدان الثقة التي تبررها الطموحات

الواسعة للمدرسة التطورية و سجذات المدرسة الانتشارية والرأي المبشر السلبي للمدرسة الوظائفية، إستعادت هذه المسائل الأولوية في حقل البحث الأنثروبولوجي. وساهم مؤلف صغير ل أ. إيفانس ريتشارد (الأنثروبولوجيا و التاريخ 1961) في رد الإعتبار لهذا التاريخ، ولن يجد الجدل نهايته إلا إذا بدأنا نميز دون الوقوع في الغموض وسائل المعرفة التاريخية والأشكال التي تتخذها السيرورة التاريخية والتعبيرات الإيديولوجية التي تخفي التاريخ الحقيقي. في حالة الأنثروبولوجيا السياسية فإن وضوح العلاقات الموجودة بين هذه اللوائح الثلاث هو شرط ضروري.

وفي مجال أعتبر ولمدة طويلة خارج التاريخ – أي مجال المجتمعات والحضارات الزنجية– الإفريقية– راحت الأعمال الحديثة تبرهن خطأ التأويلات السكونية للغاية. ولا يمكن بعد الآن تجاهل حقيقة التاريخ الإفريقي الظاهر بتأثيراته على حياة وموت المجتمعات السياسية والحضارات الزنجية. تبين الأبحاث التي تأخذ هذه الأبعاد بعين الإعتبار بأن الشعور التاريخي لم يظهر بالصدفة وذلك على أثر المحن الإستعمارية والتحولات العصرية، فليس التاريخ الأجنبي وحده "المسبطن" تشير إلى ذلك هذه الأبحاث نافية وجهة نظر جون بول سارتر. في دراسة عن النوب بنيجيريا، يميز س. ف. نادل مستويين من التعبير التاريخي (مستوى التاريخ الإيديولوجي ومستوى التاريخ الموضوعي) ويلاحظ أن لدى النوب إحساسا تاريخيا عاملا على هذين المستويين. وأكدت أبحاث جديدة ثنائية التعبير التاريخي هذه والمعرفة التي تنظمها هذه الثنائية، أن تاريخا عاما (مثبتا بسماته العامة ومرتبطا بكيان عرقي بأسره) يتعايش مع تاريخ خاص (محدد بالتفصيل، خاضع للتوترات، مستند إلى جماعات معينة وإلى مصالحها الخاصة). وتحمل دراسة أجراها إيان كوينسون على عشيرة لوابولا في إفريقيا الوسطى مثلا واقعيا. فهي تحدد موقف كل من طريقي التاريخ الإفريقي على التوالي: الزمن والتغيير مرتبطان على مستوى التاريخ المسمى موضوعيا، أما على مستوى التاريخ المسمى ذاتيا فالزمن ملغى والتحولات كأنها معدومة– تكون أوضاع ومصالح المجموعات ثابتة تقريبا. إضافة إلى ذلك يشير هذا التحليل إلى أي مدى وعت عشيرة لوابولا

دور الحدث في سيرورة مجتمعاتها وإلى مدى الإحساس بالسببية التاريخية. فهذه بالنسبة لهم غير تابعة للنظام الفوق طبيعي لأن الأحداث خاضعة بشكل أساسي لإدارة البشر.

تبدو الصلة واضحة بين التاريخ والسياسة حتى في المجتمعات المتروكة للعلوم الأنثروبولوجية، وعندما لم يعد ينظر للمجتمعات كأنظمة مجمدة أصبح من المستحيل إهمال الرابطة الأساسية بين ديناميتها الاجتماعية وتاريخها. وهناك حجة أخرى تفرض نفسها أيضا وبقوة أكبر هي: تكون درجات الإحساس التاريخي على صلة متبادلة مع أشكال درجة تمركز السلطة السياسية. وفي المجتمعات المجزأة غالبا ما يكون المحافظون على المعرفة المنصبة على الماضي هم وحدهم أصحاب السلطة. وفي المجتمعات الدولتية يظهر الإحساس التاريخي أكثر حياة وإتساعا. هذا وفي حضن هذه المجتمعات يتواصل وبوضوح استعمال التاريخ الإيديولوجي لأهداف استراتيجية سياسية، وهذا ما كشفه بشكل جيد ج. فنسيتا بشأن راوند القديمة. ويبقى أن نذكر أيضا أن توجه البلاد المستعمرة نحو الإستقلال وضع في خدمة الوطنيين تاريخا نضاليا حقيقيا، إذ عبر لعبة الضرورة وقد أصبحت واضحة توصلت نظرية المجتمعات الدينامية والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع السياسي والتاريخ لتوحيد جهودها. وقد أعطى هذا اللقاء قوة جديدة لنبوءة دور كايم القائل: " نحن مقتنعون... بأنه سيأتي يوم لن يختلف فيه الفكر التاريخي عن الفكر الاجتماعي إلا بفروق دقيقة".